أيها الولد

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الرسالة

الحمد لله ربّ العالمين، والعاقبة للمتّقين، والصلاة والسلام على نبيّه محمّد وآله أجمعين.

اعلم، أن واحداً من الطلبة المتقدّمين لازم خدمة الشيخ الإمام زين الدين حجّة الإسلام أبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي قدّس الله روحه واشتغل بالتحصيل وقراءة العلم عليه حتى جمع من دقائق العلوم، واستكمل من فضائل النفس، ثم إنه فكر يوماً في حال نفسه وخطر على باله، فقال: إني قرأت أنواعاً من العلوم، وصرفت ريعان عمري على تعلمها وجمعها. فالآن ينبغي أن أعلم أي نوعها ينفعني غداً ويؤانسني في قبري وأيها لا ينفعني حتى أتركه، فقد قال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُم إنِّي أَعُوذُ بكَ مِنْ علْمٍ لا يَنْفَعُ**»، فاستمرّت له هذه الفكرة حتى كتب إلى حضرة الشيخ حجّة الإسلام محمّد الغزالي رحمة الله تعالى عليه استفتاءً، وسأل عنه مسائل والتمس منه نصيحة ودعاء، وقال: وإن كان مصنفات الشيخ كالإحياء وغيره يشتمل على جواب مسائلي لكن مقصودي أن يكتب الشيخ حاجتي في ورقات تكون معي مدة حياتي وأعمل بما فيها مدى عمري إن شاء الله تعالى، فكتب الشيخ هذه الرسالة إليه في جوابه، والله أعلم.

اعلم أيها الولد المحب أطال الله بقاءك بطاعته، وسلك بك سبيل أحبائه أن منشور النصيحة يكتب من معدن الرسالة عليه السلام إن كان قد بلغك منه نصيحة فأى حاجة لك فى نصيحتى، وإن لم يبلغك منه فقل لى ماذا حصلت فى هذه السنين الماضية.

أيها الولد: من جملة ما نصح به رسول الله ﷺ أمته قوله: «**عَلاَمَةُ إعراض الله عَن العَبْد اشتغَالُهُ بمَا لا يَعْنيه وإنَّ امرأً ذَهَبَتْ سَاعَةٌ منْ عُمْره فى غَيْر مَا خُلقَ لَهُ لَجَديرٌ أَنْ تَطُولَ عَلَيْه حَسْرَتُه ومَنْ جَاوزَ الأرْبَعينَ ولَمْ يَغْلبْ خَيْرُهُ شَرَّهُ فَلْيَتَجَهَّزْ إلَى النَّار**»، وفى هذه النصيحة كفاية لأهل العلم.

أيها الولد: النصيحة سهلة والمشكل قبولها لأنها فى مذاق متبعى الهوى مرة إذ المناهى محبوبة فى قلوبهم وعلى الخصوص لمن كان طالب العلم الرسمى مشتغل فى فصل النفس ومناقب الدنيا، فإنه يحسب أن العلم المجرّد له سيكون نجاته وخلاصه فيه، وإنه مستغن عن العمل. وهذا اعتقاد الفلاسفة. سبحان الله العظيم لا يعلم هذا القدر أنه حين حصل العلم إذا لم يعمل به تكون الحجّة عليه آكد، كما قال رسول الله ﷺ: «**أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه**».

وروى أن الجنيد قدّس الله سره رئى فى المنام موته، فقيل له: ما الخبر يا أبا القاسم؟ قال: طاحت تلك العبارات، وفنيت تلك الإشارات وما نفعنا إلا ركيعات ركعناها فى جوف الليل.

أيها الولد: لا تكن من الأعمال مفلسًا، ولا من الأحوال خاليًا وتيقن أن العلم المجرد لا يأخذ اليد، مثاله: لو كان على رجل فى برية عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى، وكان الرجل شجاعًا وأهل حرب فحمل عليه أسد عظيم مهيب، فما ظنك هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها؟ فمن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب، فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلّمها ولم يعمل بها لا تفيده إلا بالعمل، ومثله أيضًا لو كان لرجل حرارة ومرض صفراوى يكون علاجه بالسكنجبين والكشكاب فلا يحصل البرء إلا باستعمالها (شعر):

كرمى دواهزار رطل همى بيمائى
تامى نخورى نباشدت شيدائى

ولو قرأت العلم مائة سنة وجمعت ألف كتاب، لا تكون مستعدًا لرحمة الله تعالى إلا بالعمل: ﴿**وأَن لَّيْسَ للإنسَانِ إلاَّ مَا سَعَىٰ**﴾ [النجم: ٣٩]. ، ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لقَاءَ رَبّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالحًا**﴾ [الكهف: ١١٠]. ، ﴿**جَزَاءً بمَا كَانُوا يَكْسبُونَ**﴾ [التوبة: ٨٢]. ﴿**إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفرْدَوْس نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ خَالدينَ فيهَا لا يَبْغُونَ**

عَنْهَا حِوَلاً﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨]. ، ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]. وما تقول فى هذا الحديث: «**بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً**». والإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، ودليل الأعمال أكثر من أن يحصى إن كان العَبْد يبلغ الجنة بفضل الله تعالى وكرمه، لكن بعد أن يستعد بطاعته وعبادته لأن رحمة الله قريب من المحسنين، ولو قيل أيضًا يبلغ بمجرد الإيمان، قلنا: نعم، لكن متى يبلغ؟ وكم من عقبة كؤود يقطعها إلى أن يصل؟ فأول تلك العقبات عقبة الإيمان، وأنه هل يسلم من سلب الإيمان أم لا؟ وإذا وصل، هل يكون خائنًا مفلسًا؟ وقال الحسن البصرى: يقول الله تعالى لعباده يوم القيامة: ادخلوا يا عبادى الجنة برحمتى واقتسموها بأعمالكم.

أيها الولد: مالم تعمل لم تجد الأجر.

حكى أن رجلاً من بنى إسرائيل عبد الله تعالى سبعين سنة فأراد الله تعالى أن يجلوه على الملائكة فأرسل الله إليه ملكًا يخبره أنه مع تلك العبادة لا يليق به دخول الجنة، فلما بلغه قال العابد: نحن خلقنا للعبادة فينبغى لنا أن نعبده، فلما رجع الملك قال: إلهى أنت أعلم بما قال، فقال الله تعالى: «**إذا هو لم يعرض عن عبادتنا فنحن مع الكرم لا نعرض عنه، اشهدوا ياملائكتى أنى قد غفرت له**»، قال رسول الله ﷺ: «**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَزِنُوا أَعْمَالَكُمْ قَبْلَ أن تُوزَنُوا**». وقال علىّ رضي الله عنه: (من ظن أنه بدون الجهد يصل فهو متمن، ومن ظن أنه ببذل الجهد يصل فهو مستغن). وقال الحسن رحمه الله تعالى: (طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب). وقال: علامة الحقيقة ترك ملاحظة العمل لا ترك العمل. وقال رسول الله ﷺ: «**الكيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ وَالأَحْمَقُ مَن اتّبَعَ هَوَاهُ وَتَمَنَّى عَلَى الله تَعالى الأَمانى**».

أيها الولد: كم من ليال أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب وحرمت على نفسك النوم، لا أعلم ما كان الباعث فيه إن كان نيل عرض الدنيا وجذب حطامها وتحصيل مناصبها والمباهاة على الأقران والأمثال فويل لك ثم ويل لك. وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبىّ ﷺ وتهذيب أخلاقك وكسر النفس الأمّارة بالسوء، فطوبى لك ثم طوبى لك. ولقد صدق من قال شعرًا:

سَهَرُ العيون لغير وجهك ضائعُ
وبكاؤهنّ لغير فَقْدِكَ باطلُ

أيها الولد: عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به.

أيها الولد: أى شيء حاصل لك من تحصيل علم الكلام، والخلاف والطب والدواوين والأشعار والنجوم والعروض والنحو والتصريف غير تضييع العمر بخلاف ذى الجلال، إنى رأيت فى إنجيل عيسى عليه الصلاة والسلام، قال: من ساعة أن يوضع الميت على الجنازة إلى أن يوضع على شفير القبر يسأل الله بعظمته منه أربعين سؤالاً، لله أوّله يقول عبدى طهرت منظر الخلْق سنين وما طهرت منظرى ساعة وكل يوم ينظر فى قلبك يقول: ما تصنع لغيرى وأنت محفوف بخيرى، أما أنت أصم لا تسمع.

أيها الولد: العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون.

واعلم أن العلم لا يبعدك اليوم عن المعاصى، ولا يحملك على الطاعة، ولن يبعدك غدًا عن نار جهنم، وإذا لم تعمل اليوم ولم تدارك الأيّام الماضية تقول غدًا يوم القيامة، فارجعنا نعمل صالحًا، فيقال: يا أحمق أنت من هناك تجئ.

أيها الولد: اجعل الهمة فى الروح، والهزيمة فى النفس، والموت فى البدن لأن منزلك القبر، وأهل المقابر ينتظرونك فى كل لحظة متى تصل إليهم، إياك إياك أن تصل إليهم بلا زاد، وقال أبو بكر الصدّيق ﷺ: هذه الأجساد قفص الطيور، واصطبل الدوابّ، فتفكر فى نفسك من أيهما أنت، إن كنت من الطيور العلوية فحين تسمع طنين طبل ارجعى إلى ربك تطير صاعداً إلى أن تقعد فى أعالى بروج الجنان، كما قال رسول الله ﷺ: «**اهتزّ عرش الرحمن من موت سعد بن معاذ**». والعياذ بالله إن كنت من الدواب، كما قال الله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فلا تأمن انتقالك من زاوية الدار إلى هاوية النار، وروى أن الحسن البصرى رحمه الله تعالى أعطى شربة ماء بارد فأخذ القدح وغشى عليه وسقط من يده، فلما أفاق قيل له: مالك يا أبا سعيد؟ قال: ذكرت أمنية أهل النار حين يقولون لأهل الجنة أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله.

أيها الولد: لوكان العلم المجرد كافيًا لك ولا تحتاج إلى عمل سواه، لكان نداء: هل من سائل، هل من مستغفر، هل من تائب ضائعًا، بلا فائدة. وروى أن جماعة من الصحابة ﷺ أجمعين ذكروا عبد الله بن عمر عند رسول الله ﷺ فقال: «**نعْمَ الرَّجُل هُوَ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ**» وقال عليه السلام لرجل من أصحابه: «**يافُلان لا تكْثِرُ النَوْمَ بِاللْيلِ، فَإن كَثْرَةِ النومِ باللْيلِ يَدَعْ صَاحِبَهُ فَقيراً يَوْمَ القيامَةِ**».

أيها الولد: ومن الليل فتهجد به: أمر، وبالأسحار هم يستغفرون شكر، والمستغفرون بالأسحار ذكر، قال عليه السلام: «**ثَلاثَةُ أصْوَاتٍ يُحِبُّهـا الله تَعَالى: صَوتُ الدِّيك، وَصَوْتُ الَّذى يَقْرَأُ القُرْآنَ، وصَوْتُ المُسْتَغْفِرينَ بالأَسْحَارِ**». قال سفيان الثورى، رحمة الله تعالى عليه: إن الله تبارك وتعالى خلق ريحًا بالأسحار تحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبار،

وقال أيضًا: إذا كان أوّل الليل ينادى مناد من تحت العرش: ألا ليقيم العابدون فيقومون ويصلون ما شاء الله، ثم ينادى مناد فى شطر الليل: ألا ليقيم القانتون، فيقومون ويصلون إلى السحر، فإذا كان السحر نادى مناد: ألا ليقيم المستغفرون ، فيقومون ويستغفرون، فإذا طلع الفجر نادى مناد: ألا ليقيم الغافلون، فيقومون من فروشهم كالموتى نشروا من قبورهم.

أيها الولد: روى فى وصايا لقمان الحكيم لابنه أنه قال: يا بنى لا يكونن الديك أكيس منك ينادى بالأسحار وأنت نائم، ولقد أحسن من قال شعرًا:

لقد هَتَفتْ فى جنح ليلٍ حمامة
على فَنَنٍ وهنا وإنّى لَنَائِمُ
كذبت وبيت الله لو كنت عاشقًا
لما سبقتنى بالبكاء الحَمَائِمُ
وأزعم أنَّى هائم ذو صبابة
لربى فلا أبكى، وتبكى البهائم

أيها الولد: خلاصة العلم أن تعلم أن الطاعة والعبادة ماهى.

اعلم: أنا الطّاعة والعبادة متابعة الشارع فى الأوامر والنواهى،بالقول والفعل. يعنى كل ما تقول وتفعل وتترك ويكون باقتداء الشرع، كما لو صمت يوم العيد وأيام التشريق تكن عاصيًا، أو صلّيت فى ثوب مغصوب وإن كانت صورة عبادة تأثم.

أيها الولد: ينبغى لك أن يكون قولك وفعلك موافقًا للشرع إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة، وينبغى لك أن لا تغتر بالشطح وطامات الصوفية لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس وقتل هواها بسيف الرياضة لا بالطامات والترهات.

واعلم، أن اللسان المطلق والقلب المطبق المملوء بالغفلة والشهوة علامة الشقاوة، حتى لا تقتل النفس بصدق المجاهدة لن يحيى قلبك بأنوار المعرفة.

واعلم أن بعض مسائلك التى سألتنى عنها لا يستقيم جوابها بالكتابة والقول إن لم تبلغ تلك الحالة تعرف ماهى، وإلا فعلمها من المستحيلات لأنها ذوقية، وكل ما يكون ذوقيًا لا يستقيم وصفه بالقول كحلاوة الحلو ومرارة المر لايعرف إلا بالذوق.كما حكى أن عنينًا كتب إلى صاحب له أن عرفنى لذة المجامعة كيف تكون، فكتب له فى جوابه: **يا فلان** إنى كنت حسبتك عنينًا فقط. الآن عرفت أنك عنين وأحمق. لأن هذه اللذه ذوقية إن تصل إليها تعرف، وإلا لا يستقيم وصفها بالقول والكتابة.

أيها الولد: بعض مسائلك من هذا القبيل، وأما البعض الذى يستقيم له الجواب فقد ذكرناه فى إحياء العلوم وغيره. وتذكر ههنا نبدأ منه ونشير إليه فنقول : قد وجب على السالك أربعة أُمور:

الأمر الأول: اعتقاد صحيح لا يكون فيه بدعة.

والثانى: توبة نصوح لا يرجع بعدها إلى الزلّة.

والثالث: استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لأحد عليك حقّ.

الرابع: تحصيل علم الشريعة قدر ما تؤدى به أوامر الله تعالى. ثم من العلوم الآخرة ما يكون به النجاة.

حكى أن الشبلى رحمه الله خدم أربعمائة أستاذ، وقال: قرأت أربعة آلاف حديث، ثم اخترت منها حديثًا واحدًا وعملت به وخليت ما سواه لأنى تأملته فوجدت خلاصى ونجاتى فيه. وكأن علم الأولين والآخرين كله مندرجًا فيه فاكتفيت به، وذلك أن رسول الله ﷺ قال لبعض أصحابه: «**اعْمَلْ لدُنْيَاكَ بقَدر مقَامكَ فيها، واعْمل لآخرَتُكَ بقَدْر بَقَائكَ فيها، واعْمَلْ لله بقدر حَاجَتَكَ إلَيْه، واعمَل للنار بقَدْر صَبْرِكَ عَلَيْها**» .

أيها الولد: إذا علمت هذا الحديث لاحاجة إلى العلم الكثير، وتأمل فى حكاية أُخرى: وذلك أن حاتمًا الأصمّ كان من أصحاب الشقيق البلخى رحمة الله تعالى عليهما، فسأله يومًا قال: صاحبتنى منذ ثلاثين سنة ما حصلت فيها؟ قال: حصلت ثمانى فوائد من العلم وهى تكفينى منه لأنى أرجو خلاصى ونجاتى فيها، فقال شقيق: ماهى! قال حاتم الأصمّ:

الفائدة الأولى: إنى نظرت إلى الخلق فرأيت لكل منهم محبوبًا ومعشوقًا يحبه ويعشقه وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت وبعضه إلى شفير القبر، ثم يرجع كله ويتركه فريدًا وحيدًا ولا يدخل معه فى قبره منهم أحد، فتفكرت وقلت: أفضل محبوب المرء ما يدخل معه فى قبره ويؤانسه فيه فما وجدت غير الأعمال الصالحة فأخذتها محبوبًا لى لتكون سراجًا لى فى قبرى، وتؤانسنى فيه ولا تتركنى فريدًا.

الفائدة الثانية: إنى رأيت الخلق يقتدون بأهوائهم ويبادرون إلى مرادات أنفسهم فتأمّلت قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ**﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]. وتيقنت أن القرآن حق صادق فبادرت إلى خلاف نفسى وتشمرت بمجاهدتها وما متعتها بهواها حتى رضيت بطاعة الله سبحانه وتعالى وانقادت.

الفائدة الثالثة: إنى رأيت كل واحد من الناس يسعى فى جمع حطام الدنيا ثم يمسكها قابضًا يده عليه، فتأملت فى قوله تعالى: ﴿**مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ**﴾ [النحل: ٩٦].

فبذلت محصولى من الدنيا لوجه الله تعالى، ففرّقته بين المساكين ليكون ذخرًا لى عند الله تعالى.

الفائدة الرابعة: إنى رأيت بعض الخلق ظن شرفه وعزه فى كثرة الأقوام والعشائر فاغترَّ بهم، وزعم آخر أنه فى ثروة الأموال وكثرة الأولاد فافتخروا بها، وحسب بعضهم الشرف والعزّ فى غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم، واعتقدت طائفة أنه فى إتلاف المال وإسرافه وتبذيره، وتأمّلت فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣]. فاخترت التقوى واعتقدت أن القرآن حقّ صادق وظنهم وحسبانهم كلها باطل زائل.

الفائدة الخامسة: إنى رأيت الناس يذمّ بعضهم بعضًا ويغتاب بعضهم بعضًا، فوجدت ذلك من الحسد فى المال والجاه والعلم، فتأملت فى قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [الزخرف: ٣٢]. فعلمت أن القسمة كانت من الله تعالى فى الأزل فما حسدت أحدًا ورضيت بقسمة الله تعالى.

الفائدة السادسة: إنى رأيت الناس يعادى بعضهم بعضًا لغرض وسبب فتأملت قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾ [فاطر: ٦]. فعلمت أنه لا يجوز عداوة آخرغير الشيطان.

والفائدة السابعة: إنى رأيت كل أحد يسعى بجد ويجتهد بمبالغة لطب القوت والمعاش بحيث يقع به فى شبهة وحرام، ويذل نفسه، وينقص قدره، فتأمّلت فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾ [هود: ٦]. فعلمت أن رزقى على الله تعالى، وقد ضمنه فاشتغلت بعبادته وقطعت طمعى عمن سواه.

الفائدة الثامنة: إنى رأيت كل واحد معتمدًا على شيء مخلوق بعضهم إلى الدينار والدرهم، وبعضهم إلى المال والملك، وبعضهم إلى الحرفة والصناعة، وبعضهم إلى مخلوق مثله، فتأملت فى قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ [الطلاق: ٣]. فتوكلت على الله تعالى فهو حسبى ونعم الوكيل، فقال شقيق: وفقك الله تعالى إنى قد نظرت التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فوجدت الكتب الأربعة تدور على هذه الفوائد الثمانية، فمن عمل بها كان عاملاً بهذه الكتب الأربعة.

أيها الولد: قد علمت من هاتين الحكايتين أنك لا تحتاج إلى تكثير العلم، والآن أُبيّن ما يجب على سالك سبيل الحق.

فاعلم أنه ينبغى للسالك شيخ مرشد مربى ليخرج الأخلاق السيئة منه بتربيته ويجعل مكانها خلقًا حسنًا. ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذى يقلع الشوك ويخرج النباتات

الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه، ولا بدّ للسالك من شيخ يؤديه ويرشده إلى سبيل الله تعالى، لأن الله أرسل للعباد رسولاً للإرشاد إلى سبيله، فإذا ارتحل ﷺ فقد خلف الخلفاء فى مكانه حتى يرشدوا إلى الله تعالى. وشرط الشيخ الذى يصلح أن يكون نائبًا لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه وأن يكون عالمًا، ولكن لا كل عالم يصلح للخلافة، وإنى أُبين لك بعض علامته على سبيل الإجمال حتى لا يدّعى كل أحد أنه مرشد.

فنقول: من يعرض عن حبّ الدنيا وحبّ الجاه، وكان قد تابع لشخص بصير يتسلسل متابعته إلى سيّد المرسلين ﷺ وكان محسنًا رياضة نفسه من قلة الأكل والقول والنوم، وكثرة الصلوات والصدقة والصوم، وكان بمتابعته الشيخ البصير جاعلاً محاسن الأخلاق له سيرة كالصبر والصلاة والشكر والتوكُّل واليقين والقناعة وطمأنينة النفس والحلم والتواضع والعلم والصدق والحياء والوفاء والوقار والسكون والتأنّى وأمثالها، فهو إذًا نور من أنوار النبىّ ﷺ يصلح للاقتداء به، ولكن وجود مثله نادر أعزّ من الكبريت الأحمر، ومن ساعدته السعادة فوجد شيخًا كما ذكرنا وقبله الشيخ ينبغى أن يحترمه ظاهرًا وباطنًا. أمّا احترام الظاهر فهو أن لا يجادله ولا يشتغل بالاحتجاج معه فى كل مسألة وإن علم خطأه، ولا يلقى بين يديه سجادته إلا وقت أداء الصلاة فإذا فرغ يرفعها، ولا يكثر نوافل الصلاة بحضرته، ويعمل ما يأمره الشيخ من العمل بقدر وسعه وطاقته. وأمّا احترام الباطن فهو أن كل ما يسمع ويقبل منه فى الظاهر لاينكره فى الباطن لا فعلاً ولا قولاً لئلا يتّسم بالنفاق، وإن لم يستطع يترك صحبته إلى أن يوافق باطنه ظاهره، ويحترز عن مجالسة صاحب السوء ليقصر ولاية شياطين الجنّ والإنس من صحن قلبه فيصفى عن لوث الشيطنة، وعلى كل حال يختار الفقر على الغنى. ثم اعلم، أن التصوّف له خصلتان: الاستقامة والسكون عن الخلق، فمن استقام وأحسن خلقه بالناس وعاملهم بالحلم فهو صوفى. والاستقامة أن يفدى حظّ نفسه لنفسه، وحسن الخلق مع الناس أن لا تحمل الناس على مراد نفسك بل تحمل نفسك على مرادهم ما لم يخالفوا الشرع، ثم إنك سألتنى عن العبودية، وهى ثلاثة أشياء أحدها: محافظة أمر الشرع، وثانيها: الرضاء بالقضاء والقدر وقسمة الله تعالى، وثالثها: ترك رضاء نفسك فى طلب رضاء الله تعالى، وسألتنى عن التوكل هو أن تستحكم اعتقادك بالله تعالى فيما وعد يعنى تعتقد أن ما قدر لك سيصل إليك لا محالة وإن اجتهد كل من فى العالم على صرفه عنك، وما لم يكتب لن يصل إليك وإن ساعدك جميع العالم. وسألتنى عن الإخلاص، وهو أن تكون أعمالك كلها لله تعالى ولايرتاح قلبك بمحامد الناس ولا تبالى بمذمتهم. واعلم، أن الرياء يتولّد من تعظيم

الخلق، وعلاجه أن تراهم مسخرين تحت القدرة وتحسبهم كالجمادات فى عدم قدرة إيصال الراحة والمشقّة لتخلص من مراءاتهم، ومتى تحسبهم ذوى قدرة وإرادة لن يبعد عنك الرياء.

أيها الولد: والباقى من مسائلك بعضها مسطور فى مصنفاتى فاطلبه منه وكتابة بعضها حرام، اعمل أنت بما تعمل ليكشف لك ما لم تعلم.

أيها الولد: بعد اليوم لا تسألنى ما أشكل عليك إلا بلسان الجنان قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ**﴾ [الحجرات: ٥]. واقبل نصيحة الخضر عليه السلام حين قال: ﴿**فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**﴾ [الكهف: ٧٠]. ولا تستعجل حتى تبلغ أو أنه يكشف لك وتراه: ﴿**سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ**﴾[الأنبياء: ٣٧]. فلا تسألنى قبل الوقت: وتيقن أنك لا تصل إلا بالسير لقوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا**﴾ [الروم: ٩،غافر: ٢١].

أيها الولد: بالله إن تسر تَر العجائب فى كل منزل، وابذل روحك فإن رأس هذا الأمر بذل الروح كما قال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى لأحد من تلامذته: إن قدرت على بذل الروح فتعال وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية.

أيها الولد: إنى أنصحك بثمانية أشياء اقبلها منى لئلا يكون علمك خصمًا عليك يوم القيامة، تعمل منها أربعة، وتدع منها أربعة أما اللواتى تدع:

أحدها: أن لا تناظر أحدًا فى مسألة ما استطعت لأن فيها آيات كثيرة فإثمها أكبر من نفعها، إذ هى منبع كل خلق ذميم كالرياء والحسد والكبر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها، نعم لو وقع مسألة بينك وبين شخص أوقوم وكانت إرادتك فيها أن تظهر الحق ولا يضيع جاز البحث لكن لتلك الإرادة علامتان: إحداهما: أن لا تفرق بين أن ينكشف الحق على لسانك أو على لسان غيرك، والثانية: أن يكون البحث فى الخلاء أحب إليك من أن يكون فى الملأ، واسمع إنى أذكر لك ههنا فائدة. واعلم أن السؤال عن المشكلات عرض مرض القلب إلى الطبيب والجواب له سعى لإصلاح مرضه. واعلم: أن الجاهلين المرضى قلوبهم والعلماء الأطباء والعالم الناقص لا يحسن المعالجة والعالم الكامل لا يعالج كل مريض بل يعالج من يرجو فيه قبول المعالجة والصلاح. وإذا كانت العلّة مزمنة أو عقيمًا لا تقبل العلاج فحذاقة الطبيب فيه أن يقول هذا لايقبل العلاج فلا تشتغل فيه بمداواته لأن فيه تضييع العمر، ثم اعلم، أن مرض الجهل على أربعة أنواع:

أحدها: يقبل العلاج والباقى لا يقبل أما الذى لايقبل «أحدها» من كان سؤاله واعتراضه عن حسده وبغضه فكلما تجيبه بأحسن الجواب وأفصحه وأوضحه فلا يزيد له ذلك إلا بغضًا وعداوة وحسدًا، فالطريق أن لا تشغل بجوابه فقد قيل:

كل العداوة قد ترجى إزالتها
إلا عداوة من عاداك عن حسد

فينبغي أن تعرض عنه وتتركه مع مرضه، قال الله تعالى: ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾ [النجم: ٢٩]. والحسود بكل ما يقول ويفعل أوقد النار في زرع علمه، الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

والثاني: أن تكون علته من الحماقة وهو أيضًا لا يقبل العلاج، كما قال عيسى عليه السلام: إني ما عجزت عن إحياء الموتى وقد عجزت عن معالجة الأحمق، وذلك رجل يشتغل بطلب العلم زمنًا قليلاً ويتعلم شيئًا من العلم العقلي والشرعي فيسأل ويعترض من حماقته على العالم الكبير الذي مضى عمره في العلوم العقلية والشرعية، وهذا الأحمق لم يعلم ويظن أن ما أشكل عليه هو أيضًا مشكل للعالم الكبير، فإذا لم يعلم هذا القدر يكون سؤاله من الحماقة، فينبغي أن لا يشتغل بجوابه.

والثالث: أن يكون مسترشدًا وكل ما لا يفهم من كلام الأكابر يحمل على قصور فهمه وكان سؤاله للاستفادة لكن يكون بليدًا لا يدرك الحقائق فلا ينبغي الاشتغال بجوابه أيضًا، كما قال رسول الله ﷺ «**نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاء أُمِرْنا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدَرِ عُقُولِهِمْ**». وأما المرض الذي يقبل العلاج فهو أن يكون مسترشدًا عاقلاً فهمًا لا يكون مغلوبَ الحسد والغضب وحبّ الشهوة والجاه والمال، ويكون طالب الطريق المستقيم ولم يكن سؤاله واعتراضه عن حسد وتعنّت وامتحان، وهذا يقبل العلاج فيجوز أن تشتغل بجواب سؤاله بل يجب عليك إجابته.

والرابع: مما تدع وهو أن تحذر من أن تكون واعظًا ومذكرًا لأن فيه آفة كثيرة إلا أن تعمل بما تقول أولاً، ثم تعظ به الناس فتفكر فيما قيل لعيسى عليه السلام: يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتّعظت فعظ الناس وإلا فاستحي من ربك. وإن ابتليت بهذا العمل فاحترز عن خصلتين:

الأولى: عن التكلّف في الكلام بالعبارات والإشارات والطامات والأبيات والأشعار لأن الله تعالى يبغض المتكلفين، والمتكلّف المتجاوز عن الحدّ يدل على خراب الباطن وغفلة القلب، ومعنى التذكير أن يذكر العبد نار الآخرة وتقصير نفسه في خدمة الخالق، ويتفكر في عمره الماضي الذي أفناه فيما لايعنيه، ويتفكر فيما بين يديه من العقبات من عدم الإيمان في الخاتمة وكيفية حاله في قبض ملك الموت، وهل يقدر على جواب منكر ونكير، ويهتم بحاله في القيامة ومواقفها، وهل يعبر عن الصراط سالمًا أم يقع في الهاوية، ويستمر ذكر هذه الأشياء في قلبه فيزعجه عن قراره، فغليان هذه النيران وتوجه هذه المصائب يسمى

تذكيرًا وإعلامهم الخلق واطلاعهم على هذه الأشياء وتنبيههم على تقصيرهم وتفطيرهم وتبصيرهم بعيوب أنفسهم التمس حرارة هذه النيران أهل المجلس وتجزعهم تلك المصائب ليتداركوا العمر الماضى بقدر الطاقة، ويتحسروا على الأيام الخالية فى غير طاعة الله تعالى، هذه الجملة على هذا الطريق يسمى وعظًا كما لو رأيت أن السيل قد هجم على دار أحد وكان هو وأهله فيها فتقول: الحذر الحذر، فرّوا من السيل وهل يشتهى قلبك فى هذه الحالة أن تخبر صاحب الدار خبرك بتكليف العبارات والنكت والإشارات فلا تشتهى البتة فكذلك حال الواعظ فينبغى أن يجتنبها.

والخصلة الثانية: أن لاتكون همتك فى وعظك أن ينفر الخلق فى مجلسك ويظهروا الوجد ويشقوا الثياب ليقال نعم المجلس هذا، لأن كله ميل للدنيا وهو يتولّد من الغفلة، بل ينبغى أن يكون عزمك وهمتك أن تدعو الناس من الدنيا إلى الآخرة، ومن المعصية إلى الطاعة ومن الحرص إلى الزهد، ومن البخل إلى السخاء، ومن الغرور إلى التقوى وتحبب إليهم الآخرة وتبغض إليهم الدنيا، وتعلمهم علم العبادة والزهد لأن الغالب فى طباعهم الزيغ عن منهج الشرع والسعى فيما لا يرضى الله تعالى به، والاستعثار بالأخلاق الردية فألقِ فى قلوبهم الرعب وروعهم وحذرهم عما يستقبلون من المخاوف، ولعل صفات باطنهم تتغير ومعاملة ظاهرهم تتبدل، وينظروا الحرص والرغبة فى الطاعة، والرجوع عن المعصية، وهذا طريق الوعظ والنصيحة، وكل وعظ لا يكون هكذا فهو وبال على من قال ويسمع، بل قيل إنه غول وشيطان يذهب بالخلق عن طريق ويهلكهم. فيجب عليهم أن يفروا منه لأن ما يفيد هذا القائل من دينهم لا يستطيع بمله الشيطان، ومن كانت له يد وقدرة يجب عليه أن ينزله عن منابر المواعظ ويمنعه عما باشر، فإنه من جملة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

والثالث: مما تدع أنه لا تخالط الأمراء والسلاطين، ولا تراهم لأن رؤيتهم ومجالسهم ومخالطتهم آفة عظيمة، ولو ابتليت بها دع عنك مدحهم وثناءهم لأن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق والظالم، ومن دعا بطول بقائهم فقد أحبّ أن يعصى الله فى أرضه.

والرابع: مما تدع أن لا تقبل شيئًا من عطاء الأمراء وهداياهم وإن علمت أنها من الحلال لأن الطمع منهم يفسد الدين لأنه يتولد منه المداهنة ومراعاة جانبهم والموافقة فى ظلمهم، وهذا كله فساد فى الدين وأقلّ مضرته أنك إذا قبلت عطاياهم وانتفعت من دنياهم أحببته ومن أحب أحدًا يحب طول عمره وبقائه بالضرورة، وفى محبة بقاء الظالم إرادة فى الظلم على عباد الله تعالى وإرادة خراب العالم، فأى شىء يكون أضر من هذا الدين والعاقبة، وإياك وإياك أن يخدعك استهواء الشياطين أو قال بعض الناس لك بأن الأفضل

والأولى أن تأخذ الدينار والدرهم منهم وتفرقها بين الفقراء والمساكين، فإنهم ينفقون في الفسق والمعصية، وإنفاقك على ضعفاء الناس خير من إنفاقهم، فإن اللعين قد قطع أعناق كثيرة من الناس بهذه الوسوسة. وقد ذكرناه في إحياء العلوم فاطلبه ثمة.

وأما الأربعة التي ينبغي لك أن تفعلها:

الأول: أن تجعل معاملتك مع الله تعالى بحيث لو عامل معك بها عبدك ترضى بها منه ولا يضيق خاطرك عليه ولا تغضب، والذي لا ترضى لنفسك من عبدك المجازي فلا ترضى أيضًا لله تعالى وهو سيِّدك الحقيقي.

والثاني: كلما عملت بالناس اجعله كما ترضى لنفسك منهم لأنه لايكمل إيمان عبد حتى يحب لسائر الناس ما يحبّ لنفسه.

والثالث: إذا قرأت العلم أو طالعته ينبغي أن يكون علمك يصلح قلبك ويزكّي نفسك، كما لو علمت أن عمرك ما يبقى غير أسبوع، فبالضرورة لا تشتغل فيها بعلم الفقه والأخلاق والأصول والكلام وأمثالها لأنك تعلم أن هذه العلوم لا تغنيك، بل تشتغل بمراقبة القلب ومعرفة صفات النفس، والإعراض عن علائق الدنيا، وتزكّي نفسك عن الأخلاق الذميمة وتشتغل بمحبة الله تعالى وعبادته، والاتّصاف بالأوصاف الحسنة. ولا يمر على عبد يوم وليلة إلا ويمكن أن يكون موته فيه.

أيها الولد: اسمع مني كلامًا آخر وتفكر فيه حتى تجد خلاصًا لو أنك أخبرت أن السلطان بعد أسبوع يختارك وزيرًا. اعلم أنك في تلك المدة لا تشتغل إلا بإصلاح ما علمت أن نظر السلطان سيقع عليه من الثياب والبدن والدار والفراش وغيرها، والآن تفكر إلى ما أشرت به فإنك فهم والكلام الفرد يكفي، أليس قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وَلا إلى أعْمَالكُمْ، ولَكنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وَنيّاتكُمْ**». وإن أردت علم أحوال القلب فانظر إلى الإحياء وغيره من مصنفاتي. وهذا العلم فرض عين وغيره فرض كفاية إلا مقدار ما يؤدي به فرائض الله تعالى وهو يوفّقك حتى تحصله.

والرابع: أن لا تجمع من الدنيا أكثر من كفاية سنة، كما كان رسول الله ﷺ يعدّ ذلك لبعض حجراته، وقال: «**اللَّهمَّ اجْعَلْ قُوتَ آل مُحَمّد كَفَافًا**». ولم يكن يعد ذلك لكل حجراته بل كان يعده لمن علم أن في قلبها ضعفًا، وأمّا من كانت صاحبة يقين ما كان يعدّ لها أكثر من قوت يوم ونصف.

أيها الولد: إني كتبت في هذا الفصل ملتمساتك فينبغي لك أن تعمل بها ولا تنساني فيه من أن تذكرني في صالح دعائك، وأمّا الدعاء الذي سألت مني فاطلبه من دعوات الصحاح واقرأ هذا الدعاء في أوقاتك خصوصًا أعقاب صلواتك، اللهمّ إنّي أسألك من

النعمة تمامها، ومن العصمة دوامها، ومن الرحمة شمولها، ومن العافية حصولها، ومن العيش أرغده، ومن العمر أسعده، ومن الإحسان أتمه، ومن الإنعام أعمّه، ومن الفضل أعذبه، ومن اللطف أقربه، اللهمّ كن لنا ولا تكن علينا، اللهمّ اختم بالسعادة آجالنا، وحقّق بالزيادة آمالنا، واقرن بالعافية غدونا وآصالنا، واجعل إلى رحمتك مصيرنا ومآلنا، واصبب سجال عفوك على ذنوبنا، ومنّ علينا بإصلاح عيوبنا، واجعل التقوى زادنا، وفى دينك اجتهادنا، وعليك توكّلنا واعتمادنا، اللهمّ ثبّتنا على نهج الاستقامة، وأعذنا فى الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة، وخفّف عنا ثقل الأوزار، وارزقنا عيشة الأبرار، واكفنا واصرف عنا شر الأشرار، واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمّهاتنا وإخواننا وأخواتنا من النار برحمتك ياعزيز يا غفّار ياكريم ياستّار يا عليم ياجبّار يا الله ياالله ياالله برحمتك يا أرحم الرّاحمين، ويا أوّل الأوّلين، ويا آخر الآخرين ويا ذا القوّة المتين، ويا راحم المساكين، ويا أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين.